

جهود يغمراسن بن زيان وابنه أبي سعيد عثمان في إقامة إمارة بني عبد الواد

د. لطيفة بشاري

قسم التاريخ- جامعة الجزائر 2- بوزريعة

ملخص:

بذل الأمير يغمراسن جهداً كبيراً لإقامة دولة بني عبد الواد. فقد عمل على بنائها في الداخل حيث مكّن قبيلته من الاستقرار في مدينة تلمسان، وجعل منها قوة في المنطقة، فأخضع لها القبائل التي كانت بجوارها باستمالة بعضها باللين، وبضّم أخرى بالقوة. وفرض استقلال دولته على جيرانه فخاض حروباً عديدة مع المرينيين في غربه، والحفصيين في شرقه. كما وضع أسس علاقات بلاده الخارجية فشجع التجارة مع بلاد السودان التي كان الذهب يجلب منها، عصب النشاط الاقتصادي في تلك الفترة، ومدّ يده بالمساعدة لبني الأحمر في غرناطة، في إطار البحث عن توازن القوى، حاول عقد معاهدات مع مملكة أراغونة.

وسار أبو سعيد عثمان على درب أبيه، فقضّى خمس سنوات في بناء الدولة من الداخل ثمّ عمل على توسيع رقعة إمارته، شرقاً كما أوصاه أبوه، فضّم مناطق شاسعة، بحيث وصل إلى مدينة بجاية التي كانت تابعة للحفصيين واتّصل بالأراغونيين في إسبانيا وعقد معهم معاهدة سلم وتجارة. إلاّ أنّه فوجئ بهجمات متكرّرة من جيرانه المرينيين، الذين استطاعوا ضرب حصار طويل على عاصمته تلمسان، دام حوالي ثمان سنوات. وقبل انتهائه، توفي الأمير سنة 703هـ / 1303م.

أقرّ المأمون الموحد شيخ قبيلة بني عبد الواد، جابر بن يوسف حاكماً على تلمسان سنة 627هـ / 1230م، فأعلن طاعته أمام الملأ للموحدين، لكنه قتل أثناء

حصاره لندرومة التي رفضت الدخول في طاعته، سنة 629هـ / 1232-1233م⁽¹⁾. وخلفه ابنه الحسن لمدة ستة أشهر، ثم تنحى عن حكم تلمسان في ظروف غامضة⁽²⁾. وتولى مكانه عمه عثمان بن يوسف، وكان فضا غليظا إلى درجة العنف، والجور. فثار ضده سكان تلمسان، وعزلوه سنة 631هـ / 1233-1234م⁽³⁾. ثم اختاروا ابن عمه زيدان بن زيان بن ثابت، الملقب بأبي عزّة⁽⁴⁾. فنافسه على الحكم بنو مطهر، وجرّوا معهم بني راشد⁽⁵⁾، حلفاءهم قبل استقرارهم في الشمال، فحاربوه، وخاضوا ضده معارك قتل أثناءها⁽⁶⁾.

وخلفه أخوه يغمراسن، يوم الأحد 24 ذي القعدة سنة 633هـ⁽⁷⁾ / 31 جويلية 1236م⁽⁸⁾، فأعلن في البداية ولاءه الرمزي للموحدين⁽⁹⁾، إذ «لم يترك... من رسوم

⁽¹⁾ ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد الحسن): كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ / 1980م، ص 200.

⁽²⁾ لم يكن الحسن يرغب في الحكم لضعف شخصيته (أنظر: ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، مج 7، ص 157، ط. بيروت).

⁽³⁾ أنظر: العبر، مج 7، ص 153؛ بغية الرواد، ص 200.

⁽⁴⁾ يسميه ابن خلدون عبد الرحمن أحيانا، زكدان (العبر، مج 7، ص 152، ط. بيروت) أو هو زكران أو زجدان ابن زيان بن ثابت (بغية الرواد، ج 1، ص 200)، والأصح هو: زيدان التنسي (محمد بن عبد الله): نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، الباب السابع، تحقيق محمود بوعياذ، طبعة الجزائر، 1405هـ / 1985م، ص 156.

⁽⁵⁾ نزل بنو راشد الجبل الذي يحمل اسمهم (جبل بني راشد) عندما ضعفت الدولة الموحدية (عبد الحميد حاجيات، أبو هو موسى الزياتي، حياته وآثاره، الجزائر، 1982، ص 12).

⁽⁶⁾ العبر، مج 7، ص 153-154؛ بغية الرواد، ج 1، ص 200؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، 12.

⁽⁷⁾ هو أبو يحيى يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، ولد سنة 603هـ / 1206م أو سنة 605هـ / 1208 (العبر، مج 7، ص 262؛ بغية الرواد، ج 1، ص 204).

⁽⁸⁾ يذكر التنسي أن يغمراسن خلف أخاه في 17 جمادى الآخرة سنة 637هـ (1240-1241م)، المصدر السابق، ص 154.

⁽⁹⁾ أنظر: عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 12-13.

دولتهم وألقاب ملكهم، إلا الدعاء على منابرهم للخليفة بمراكش⁽¹⁾. وقد حافظ على الولاء حتى يزكي الموحدون توليه، ولا يلفت نظر بني مرين الذين كانوا جنوب المغرب الأقصى، والحفصيين في إفريقية، ولكي يتفادى في نفس الوقت، منافسة رؤساء القبائل المجاورة له، في المناطق التلية، كمغراوة في ناحية شلف، وبني توجين بجبل وانشريس، وبني راشد في جبل بني راشد.

لكنه عندما شرع في توسيع إمارته من ناحية شلف، اصطدم بمغراوة التي استنجدت بالأمير أبي زكرياء يحيى الحفصي⁽²⁾. وكان يتربص الفرصة المناسبة لتوسيع نفوذه، هو الآخر، غربا. فاحتل تلمسان في 29 محرم سنة 640هـ⁽³⁾ / 29 جوان 1242م. وعقد صلحا مع يغمراسن، ينص على إقامة الخطبة له، دون الرشيد الموحدي⁽⁴⁾، الذي سبق ليغمراسن أن مكث من استعادة مدينة مكناس التي

(1) العبر، مج7، ص163 (ط. بيروت).

(2) عنه أنظر: (Idris(H.R):E.I., article Abou-Zakariya, T.3, Nelle éd. P.71)

(3) بغية الرواد، 1، ص205؛ العبر، 7، ص 185 فما بعدها، (Henri) Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination espagnole, Oran, 1958, p. 47. Fey(Léon سنة 645هـ / 1247-1248م) (المصدر السابق، ص 160).

(4) هو أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف العسكري بن عبد المؤمن ابن علي، (بغية الرواد، 1، 205). بويغ في مستهل شهر محرم سنة 630هـ / 18 أكتوبر 1232م وقتل يوم الثلاثاء آخر صفر سنة 646هـ / 23 يونيو 1248م) (عنه أنظر: عنان (محمد عبد الله)، المرجع السابق، ج2، ص 427 فما بعدها من عدة صفحات).

اتخذها المرينيون عاصمة لهم.⁽¹⁾ فرد الرشيد بالزحف على المغرب الأوسط، لكن يغمراسن هزمه جنوب وجدة قي 10 صفر 646هـ / 1248م.

وكان لهذا الانتصار نتائج عديدة منها: أن بني عبد الواد أصبحوا يشكلون قوة في المنطقة⁽³⁾، كما أن القبائل المنتشرة حول تلمسان انقسمت إلى مؤيدة، ومعارضة ليغمراسن، الذي تظن للدور الذي يمكن أن تلعبه هذه القبائل لصالحه. فاستغل أوضاعها، وضرب بعضها بالبعض الآخر⁽⁴⁾. ذلك بأن استقدم قبيلة بني عامر من صحراء بني يزيد، وأقطعهم أراضي خصبة بين وهران وتلمسان، ليضرب بهم عرب المعقل، الذين أحدثوا اضطرابات في سهل متيجة، أزعجت الدولة، كما استقدم قبيلة حيان الهلالية، فاستقرت جنوب تلمسان. وقام من جهة أخرى، بعدة محاولات للتوسع شرقا، ضد مغراوة وبني توجين، وغربا، ضد بني مرين

(1) أنظر: Laraoui Abdallah, Histoire du Maghreb, Paris, 1970, pp. 188-189؛ ومكناس أو مكناسة الزيتون تقع على بعد 130 كلم شرق مدينة الرباط وعلى بعد 60 كلم غرب مدينة فاس، E. I. ; (Brentans Fuck(C), article Meknès, T. III., pp. 18sq.)

(2) بغية الرواد، 1، ص 206؛ العبر، 7، ص 170، (ط. بيروت)؛ نظم الدر، ص 163؛ وتقع مدينة وجدة شرق المغرب الأقصى على بعد 14 كلم من الحدود الجزائرية المغربية، في الجهة الجنوبية، من سهل أنجاد الواسع، أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ / 994م (E. I., Article) pp. 1085-1086. (G) Oujda, T. III, Marçais

(3) حاجيات (عبد الحميد)، أبو هو موسى الزياتي، ص 13.

(4) وبنو عامر عرب كانوا يضعون في مجالات بني يزيد، وكان هؤلاء يدفعون لهم ضريبة قدرها ألف غرارة من الزرع تسمى القرارة، لأن بني عامر يظاهر ونهم في حروبهم (مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر، 1982، ص 156)؛ وأقطع يغمراسن بني عامر أراضي خصبة، بين وهران وتلمسان ليضرب بهم عرب المعقل (العبر، 6، ص 58-59)؛ الذين أحدثوا اضطرابات في سهل متيجة أزعجت الدولة (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص 151 فما بعدها)، كما استقدم قبيلة حيان الهلالية، فاستقرت جنوب تلمسان (مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص 151).

وأحلافهم. وخاض في سبيل ذلك حروباً عديدة⁽¹⁾. وقد استطاع بصموده، وحنكته السياسية، أن يضع أسس إمارة، حكمت المغرب الأوسط حوالي ثلاثة قرون. وهو أول من أعلن استقلال قبيلة بني عبد الواد بحكم تلمسان. وبدأ ينظم شؤون إمارته في الداخل، فكون أجهزة الدولة من وزارة، وحجابه، وكتابة، وجيش، «وبعث في الجهات العمال، ولبس شارة الملك والسلطان»⁽²⁾. ووضع قواعد سياسة الدولة الخارجية التي تتمثل في توسيع منطقة حكمه، لتشمل أكبر مساحة في المغرب الأوسط. ولهذا فهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني عبد الواد؛ التي اختلفت حدودها، حسب قوة وضعف سلاطينها. إذ وصلت شرقاً إلى جبل الزان (جبل أكفادو)⁽³⁾، واستقرت عند الوادي الكبير (وادي الصومام)⁽⁴⁾. ووصلت جنوباً إلى الصحراء (صحراء نوميديا)⁽⁵⁾، التي تفصل بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان⁽⁶⁾. أما غرباً فقد استقرت بوادي ملوية⁽⁷⁾، وكانت هذه الحدود

⁽¹⁾ قام يغمراسن بجوالي اثنتي وسبعين غزوة ضد العرب في الصحراء (بغية الرواد، 1 ص 207؛ العبر، 7، ص 162؛ نظم الدر، ص 157؛ p35، Tlemcen، Marçais(G)؛ حاجيات، المصدر السابق، ص 13).

⁽²⁾ بغية الرواد، 1، ص 205؛ العبر، 7، ص 162؛ نظم الدر، ص 157.

⁽³⁾ أنظر: Léon l'Africain, Description de l'Afrique, nouvelle édition traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris, VI, 1956, t 2, p323, note2.

⁽⁴⁾ نفسه.

⁽⁵⁾ نفسه.

⁽⁶⁾ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط. القاهرة 1333هـ / 1915م، ج 5، ص 149.

⁽⁷⁾ Léon l'Africain, Op. cit., p323.

تصل في عهد ابن خلدون إلى بلاد تاويرت⁽¹⁾، على بعد مائة وستة وثلاثين كيلومترا إلى الغرب من مدينة وجدة⁽²⁾.

وبعد موت يغمراسن خلفه ابنه أبو سعيد عثمان في أوائل ذي الحجة سنة 681هـ⁽³⁾ / آذار- مارس 1283م، وكان والده قد أوصاه بمسألة- بني مرين غربا، والتوسع على حساب بني حفص شرقا⁽⁴⁾، حيث قال له: "... يابني إن بني مرين، بعد استفحال ملكهم، واستيلائهم على الأعمال الغربية، وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم، إذا جمعوا لوفود مددهم. ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم، لمعة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها، فإياك واعتماد لقائهم، عليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم، ليستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بمحشدك، ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك⁽⁵⁾.

حفظ أبو سعيد عثمان وصية والده، فسالم بني مرين، وقضى السنوات الأولى من حكمه في توطيد سلطانه، وإخضاع مناطق كثيرة تمردت عليه. وفي سنة 686هـ / 1286- 1287م جهز حملة، تلبية لطلب أمير تونس أبي حفص

(1) ابن خلدون، العبر، 7، ص454؛ عنها(أنظر: Léon l'Africain, Description de l'Afrique, T. 1, p. 297)

(2) أنظر جيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ط. الثانية، بيروت، 1384هـ / 1965م، ج2، ص 132؛ بوزياني الدراجي، تطور نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد 633-791هـ الجزائر 1980- 1981م، ص47.

(3) ولد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ / 1241م (عنه أنظر: بغية الرواد، ج1، ص208؛ نظم الدر، ص129).

(4) أنظر: عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص13.

(5) العبر، مج7، ص 190 (ط. بيروت).

(1284-1295م)، الذي استنجد به ضد واليه على بحاية، أبي زكريا بن السلطان أبي إسحاق الحفصي، الذي أعلن استقلاله عنه. ومع أن هذا الأخير كان صهر أبي سعيد، فقد راح يحاصره بهدف الاستيلاء على ولايته لنفسه، لكنه لم يحقق هدفه، وإنما تمكن من فتح كثير من المناطق الشرقية وأخضع إمارة توجين بجبل وانشريس، وإمارة مغراوة بشلف⁽¹⁾.

وبينما كان الأمير الزياني منشغلا بفتوحاته في المناطق الشرقية، أخذ المرينيون يغيرون على أراضيه، منذ سنة 689هـ⁽²⁾ / 1289م، لغرض استنزاف قبيلته، مستهدفين القضاء على دولته. ومن ثم راحوا يضربون حصارا عسكريا على عاصمته، دام حوالي ثمان سنوات⁽³⁾، من شعبان سنة 698هـ / مايو 1299م، إلى ذي القعدة سنة 706هـ / مايو 1307م⁽⁴⁾. وعندما رأوا شدة مقاومتها أحاطوها بسيج من الأسوار، وأنشأوا مدينة المنصورة، على بعد ثلاث كيلومترات منها⁽⁵⁾ لاستقطاب كل الأنشطة،

(1) المصدر السابق، ص 190؛ بغية الرواد، 1، ص 208؛ نظم الدر، ص 177-178؛ حاجيات، المرجع السابق، ص 14.

(2) هاجم أبو يعقوب يوسف المريني تلمسان أربع مرات وحاصرها في المرة الخامسة (بغية الرواد، 1، ص 209 فما بعدها)؛ ويذهب حاجيات إلى أن هجومات بدأت سنة 695هـ / (1285-1294م)، (المرجع السابق، ص 15).

(3) أنظر: Marçais(G) , Tlemcen, p46 sq.

(4) أنظر: Dhina, Royaume, p75.

(5) Marçais (G) , op. cit., p.57.

خاصة التجارة، التي كانت تمثل عماد الحياة الاقتصادية، في العاصمة الزيانية⁽¹⁾. وأثناء هذا الحصار، أوقف عثمان بن يغمراسن الدعوة للحفصيين⁽²⁾.

ولم تحف على حكام تلمسان أهمية التبادل التجاري منذ وقت مبكر، لاعتقادهم أن ثروة الدولة تكمن في امتلاك أكبر كمية من الذهب، وهذا التفكير هو الذي كان سائدا في العصور الوسطى⁽³⁾، وهو ما يفسر محاولة الأمير يغمراسن الاستيلاء على سجلماسة، محطة القوافل في طريق جنوب الصحراء، ودخوله في صراع مع المرينيين من أجل السيطرة عليها، وقد استولى عليها سنة 662هـ/1224م؛ لكن الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني احتلها في صفر سنة 673هـ/⁽⁴⁾ 1274م.

وكان العرب المقيمون بالمغرب الأوسط من ذوي عبيد الله من المعقل، وبني عامر، من زغبة، يمارسون التجارة مع بلاد السودان الغربي، وكان ذوو عبيد الله يقومون برحلة في شتاء كل سنة، من بلادهم الواقعة قبلة (جنوب) تلمسان⁽⁵⁾. فيتوجهون إلى قصور توات، وبالأخص تمنطيت.

(1) عن حالة تلمسان أثناء الحصار (أنظر: العبر، 7، ص 194 فما بعدها (ط. بيروت)، بغية الرواد، 1، ص 209 فما بعدها؛ نظم الدرر، ص 178 فما بعدها؛ (Bargès: Tlemcen, ancienne capitale du Royaume de ce nom, Paris, 1959, p. 193.

(2) العبر، مج 7، ص 207 (ط. بيروت).

(3) Coudray: Relations commerciales de Tlemcen avec le Sahara et le Soudan, dans Bulletin de la société de géographie d'Alger, 2em année, 1887, p. 428.

(4) عندما استولى يغمراسن على سجلماسة، عقد عليها لولده يحيى، وبعده لابن أخته عبد الملك بن محمد (العبر، مج 7، ص 175-176).

(5) العبر، مج 7، ص 119؛ كلمة القبلة تعني الجنوب، (أنظر: Dozy (R.): supplément aux dictionnaires arabes, 2^{ème} édition, Leide- Paris 1927, T. II, p. 305.

وقد أثر حصار بني مرين لتلمسان على النشاط التجاري، لكنه لم ينقطع نهائيا، إذ استمرت سواحل المغرب الأوسط تجذب التجار⁽¹⁾ القطلانيين، خاصة من ميورقة. التي كانت السفن تغادرها بانتظام سنة 703هـ / 1304م، إلى الموانئ الشرقية للدولة الزبانية، مثل: تنس وشرشال، والجزائر⁽²⁾. كما لم ينقطع النشاط التجاري للقشتلانيين، والإيطاليين، والبروفانسيين، واللانقذكين في هذه المنطقة⁽³⁾.

وبعد النزول في الموانئ المغربية، كان التجار الأوريون يغامرون بالسفر نحو منطقة العمليات الحربية بتلمسان، التي أصبحت مقر سوق سوداء مزدهرة. وكانت المنصورة هي المستفيدة من ذلك⁽⁴⁾. إذ أصبح يعبرها طريق الذهب الإفريقي الكبير، الذي يربط الساحل بالصحراء. وبذلك صارت تقوم مقام تلمسان، في تصنيع المعادن الثمينة، وفي التبادل التجاري؛ يقصدها التجار المسلمون والمسيحيون واليهود من مختلف البلدان⁽⁵⁾. وكذلك السفراء المبعوثون إلى السلطان المريني⁽⁶⁾. لكنها مع ذلك لم تعمر طويلا، بعد انتهاء الحصار، لأن بني زيان، بعد استعادة ملكهم، أخذوا في تحطيمها شيئا فشيئا، وانتهوا من ذلك قبل منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)⁽⁷⁾.

(1) Marçais(G), op. cit., p. 57.

(2) Dufourcq (Charles Emmanuel): L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles, Paris, 1966, p. 389.

(3) Dufourcq, L'Espagne catalane, p. 369.

(4) Ibid, p. 471.

(5) Julien (Ch. A.), Histoire de L'Afrique du nord, T.2, P. 157 ; Dhina: Le Royaume Abdalwadide, P. 129. ; Dufourcq, Ibid.

(6) Marçais (G): Tlemcen, P. 574 sq.

(7) Bargès: Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom, p. 194.

ومنذ نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلاديين، استقرت في المملكة الزيانية جاليات تجارية، إيطالية، وفرنسية، وأراغونية قطلانية، في مدن وهران وهنين وتلمسان⁽¹⁾. وكان أغلب نشاط التجار المسيحيين منحصرا في الموانئ، والمدن الساحلية، وفي مدينة تلمسان⁽²⁾، عاصمة الدولة الزيانية.

وقد نشطت الحركة التجارية أولا بين دولة بني زيان والجمهوريات الإيطالية، لأن الإيطاليين كانوا أنشط من غيرهم في هذا المجال في البداية، ثم يأتي بعدهم الفرنسيون الذين كانوا يتوسطون بهم، وقد عاصروا تقريبا المرحلة الأولى من ازدهار الحركة التجارية، ويأتي بعدهم القطلانيون الأراغونيون الذين سيطروا على الحوض الغربي للمتوسط، في وقت متأخر.

وكانت القرصنة عملا يكاد يكون شرعيا في تلك الفترة، أدى إلى انتشار حالة الحرب والسلب والهجمات وردود الفعل بين بحارة السواحل الشمالية وبين بحارة السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط⁽³⁾، أي بين المسلمين والمسيحيين بصفة عامة. وبقيت الملاحة عموما تعاني طويلا من هذا المشكل الذي كان يشتد، خاصة في فصل الصيف، ولم تكن أعمال القراصنة تقتصر على البحر، بل كان المسيحيون يتحينون الفرص فينزلون السواحل ويقطعون الطرق ويختطفون الناس، فينشرون بذلك الذعر والخوف في قلوب السكان، ويزعجون التجار. كما كانت أعمال القرصنة تتسبب من حين لآخر في حدوث اصطدامات مسلحة في البحر، بين المسلمين والمسيحيين، وكثيرا ما تأخذ طابعا رسميا، كما حدث بين أراغونة

(1) Fey (H. L.): Histoire d'Oran, avant, pendant et après la domination Espagnole, , P. 41, note 1.

(2) Maslatrie, op. cit., T. I, p. 183.

(3) أنظر: Marcais (G): Les villes de la cÔte Algérienne, p. 136.

وتلمسان، في السنوات 1263م و1265م و1273م و1275م، لكن كفة المصالح الاقتصادية المتمثلة في العلاقات التجارية كانت أرجح في نهاية الأمر⁽¹⁾.

وللتخفيف من حدة هذه الظاهرة السلبية على التجارة البحرية، عمدت مختلف الدول إلى العمل على توفير أكبر قدر ممكن من الأمن لسفنها، وفي هذا الإطار كانت السفن تخرج في قوافل، حتى تتعاون على الدفاع في حالة تعرضها لهجوم ما، وكانت تلجأ أحيانا إلى الاستعانة بحراس البحر. فقد قسمت الجمهوريات الإيطالية رحلاتها إلى مراحل، في كل مرحلة يصاحب سفنها أسطول بحري خاص للحراسة، يرافقها لنقطة الحراسة الموالية، ويبقى في انتظارها هناك لحين عودتها كي يصاحبها ثانية⁽²⁾. وقد أنشأت مرسيليا في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي وحدة بحرية من ثلاثمائة حارس للسواحل لضمان أمن الملاحة⁽³⁾.

وهناك بعض المعلومات سجلتها مصادر تاريخية عن بعض ما عاناه التلمسانيون من هذه الظاهرة وتبين من أنّ البنسيين كانوا يفتنمون كل الفرص للهجوم على سواحل تلمسان، ولم يتوقفوا حتى بعد عقد المعاهدات⁽⁴⁾: ففي ربيع 1286م استولى القائد البنسي Guillem Escriva، في البحر، على سلع جلبها أحد رعايا الدولة الزبانية وهو ميمون بن عطار، عندما كان عائدا إلى بلاده من جزيرة ميورقة،

(1) Brunschwig(R.): Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord, Abdel-Bassit b-Khalil et Adorne, Paris, 1936, p. 41.

(2) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص 179.

(3) Pernouds, Les villes marchandes aux XIV et XV siècles, Paris, 1948, p.p. 45-46.

(4) انظر: المعاهدات التي تمت بين أبي سعيد عثمان بن يغمراسن وملك أراغونة أدفونس الثالث سنة 1286م، لطيفة بشاري، المرجع السابق، الملحق رقم 1، ص 300 - 301 - 302.

وبعث السلطان عثمان بن يغمراسن احتجاجا إلى الملك جقمعة الثاني، ليمنع رعاياه من أعمال القرصنة⁽¹⁾.

وفي نفس السفينة، أمر جقمعة الثاني بمحاكمة المينورقي Père Dalman

الذي قبض على التاجر العباس التلمساني، عندما كان يتوجه بسلعه إلى جزيرة يابسة وأطلق سراحه حتى يؤكد للسلطان الزياني عثمان أن تجار بلاده يستطيعون ممارسة نشاطهم بمملكته في أمان⁽²⁾.

ولهذا استهدف الأراغونيون السيطرة على طرق التجارة البحرية التي تصل سواحل الإمارة الزيانية بسواحل مملكتهم وراحوا يعملون على تحقيق غايتهم في عهد جقمعة الفاتح (610 - 675 هـ / 1213 - 1276 م)، الذي حاول، منذ سنة 627 هـ / 1230 م، أن يواصل حركة الروكنكيستا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، خاصة بعد ضمه جزر البليار⁽⁴⁾ بتشجيع وتأييد إينوست الرابع Innocent IV (641 - 863 هـ / 1243 - 1258 م)، ومن ثم عمل على تطوير أسطوله وكلف الكونت نونيو Nunyo، 627 هـ / 1230 م بمهاجمة سواحل إمارة تلمسان، وفي سنة 628 هـ / 1231 م أرسل الأميرال كاروتز لمهاجمة وهران⁽⁵⁾.

(1) Dufourcq, op. cit., p. 347.

(2) Ibid, p. 438.

(3) Dufourcq, op. cit., p. 311.

(4) ضم جقمعة الأول الملقب بالفاتح جزيرة ميورقة سنة 1230 م / 627 هـ (العبر، ج 2، ط. دوسلان)، أو في 31 ديسمبر 1229، وانفصلت عن أراغونة سنة 1262 م، ثم عادت لتنظم إليها سنة 1343 م (Maslatrie, op. cit., T.1, p. 75)؛ وضم جقمعة الأول ميورقة سنة 1231 م وفو متيرا سنة 1235، (Dufourcq, op. cit., p. 87-86).

(5) Dufourcq, op. cit., p. 8 et 145.

لكن سرعان ما اتضح له أن هذه السياسة العدائية لا تدر على الخزينة الأرباح المنتظرة كما أن أصحاب السفن والتجار لم يستفيدوا منها شيئاً، فتدخلوا في سياسة مملكتهم. مما جعل جقمة الأول يشرع في تغييرها تدريجياً، فأصبحت العلاقة بين بلاده وبلاد المغرب مزدوجة، أي تجارية- حربية. فقد كانت السفن تستخدم في الصادرات والواردات، وكان التجار يمارسون القرصنة كلما سنحت الفرصة، وفي 19 جوان 1250م أصدر الملك الأراغوني مرسوماً يمنع فيه رعاياه من القيام بالقرصنة ضد البلدان المهادنة له لأنها أضرت بالتجارة⁽¹⁾.

وكانت المبادرات الفردية تغطي على العلاقات التجارية بين تلمسان وأراغونة في البداية. ومنذ أن طرأ التحول على سياسة جقمة الأول، بادر الأمير يغمراسن ابن زيان بإرسال أبي أرلان قنصلاً إلى برشلونة، فعقد عدة صفقات تجارية في قطلونيا ومونبلي بين البيع والشراء بالجملة، كما كانت له اتصالات برامون بانياريس (Ramon Bagnarès) أحد أصحاب رؤوس الأموال الذي كان وسيطاً في العمليات التجارية، التي تتم بين القطلانيين والتلمسانيين⁽²⁾.

وفي سنة 648هـ / 1250م، أي السنة التي صدر فيها المرسوم الأراغوني بمنع القرصنة، باع أحد التجار التلمسانيين 500 قنطار من الشب في العاصمة الأراغونية بمبلغ قدره 3500 بيزية⁽³⁾ (أي حوالي 700 دينار ذهبي). ويعتقد Dufourcq أن ذلك كان لحساب الأمير الزياني⁽⁴⁾.

وبدأت العلاقات التجارية، بعد ذلك، أي منذ بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، تتضح أكثر فأكثر بين الطرفين. فبعد سنة 652هـ / 1245م،

⁽¹⁾ Dufourcq, op. cit., p. 90.

⁽²⁾ Ibid, p. 146.

⁽³⁾ Dhina , Le royaume Abdalwadide, p. 164 ; op. cit., T.2., p. 250.

⁽⁴⁾ op. cit., p. 146.

أصبح قائد السرية المسيحية في تلمسان مسؤولاً، في نفس الوقت عن التجار القطلانيين في الإمارة.⁽¹⁾

وفي 21 مارس 1265م / 664 أرسل جقمة الأول الفارس Père de vilaragut سفيرا أو قائدا إلى تلمسان لمدة ثلاث سنوات، يقوم خلالها بمهام عسكرية تتمثل في الإشراف على الجند المسيحيين، الذين كانوا في خدمة الدولة الزيانية. وأخرى مدنية تتمثل في رعاية التجار بعاصمتها. وقبل نهاية مدته⁽²⁾، أي في سنة 1267م / 666هـ عين الفارس القطلاني Guillem- Galceran للقيام بنفس المهام، وأعيد تعيينه سنة 671هـ / 1272م⁽³⁾.

وفي 6 أوت 1274م سمح الملك الأراغوني لرجلين من ميورقة، لم يعثر على اسميهما بممارسة التجارة في تلمسان⁽⁴⁾، وفي 19 من نفس الشهر رخص للشركاء برنجر دارتز Berneguer d'Artes وبرنجر دوسالا Berenguer de Sala وجقمة مارتى Jaume Marti بشراء العبيد من تلمسان⁽⁵⁾.

وبعد ثلاثة أشهر من تنصيب بطرس الثالث، الذي خلف أباه جقمة الأول سنة 675هـ / 1276م، كلف السفير Bernard Porter بالسفر إلى تلمسان، لعقد معاهدة مع الأمير يغمراسن، ورغم أن المصادر لم تسجل نتائج هذه المهمة إلا أن تطور الأحداث يدل على أنه تم بينهما عقد معاهدة شاملة، عسكرية وتجارية، إذ بقي السلم قائما بينهما مثلما كان عليه أيام أبيه. كما أن الملك الأراغوني منح جواز مرور دائما لبعض التجار التلمسانيين، وعلى رأسهم محمد بن أبي عبد الله بن

(1) Maslatrie, op. cit., T.1, p. 187; Ibid, p. 151. (5)

(2) لم تذكر المؤلفات المستخدمة في هذا البحث أسباب هذا التغيير، وربما يكون الأول قد توفي.

(3) Dufourcq, op. cit., p.p. 151-152.

(4) Brunschvig (R.), op. cit., T.1., p. 64.

(5) Dufourcq, op. cit., p. 139, note 2..

بريدي، وزير يغمراسن، لتسهيل مهامهم التجارية مع بلاده⁽¹⁾، وفي هذا دليل على أن رجال الدولة الزيانية كانوا يمارسون التجارة بأنفسهم.

وفي 14 فبراير 1278م / 677هـ منح بطرس الثالث جواز مرور دائما لأربعة وعشرين مسلما من بلنسية، للذهاب إلى سواحل تلمسان بهدف توسيع التبادل التجاري بين البلدين⁽²⁾. وقد اهتم الملك الأراغوني اهتماما خاصا بالمغرب الأوسط حتى أنه عين ابنه Jacme Père قائدا بتلمسان بين سنتي 676هـ - 678م / 1277 - 1279م. ومن المهام التي أسندت إليه مراقبة الصادرات القطلانية إلى دولة بني عبد الواد⁽³⁾.

ورغم المجهودات المبذولة من الطرفين، للحفاظ على السلم، فقد ساءت الأمور سنة 678هـ / 1279م، عندما هاجم كونراد لانسيا Conrad Lancia، سواحل تلمسان بأربع سفن، وهو عائد من مهاجمة المغرب الأدنى. وساد التوتر إلى سنة 702هـ / 1282م⁽⁴⁾. لكن العلاقات التجارية استؤنفت بين البلدين منذ بداية 1283م. وعاد تجار برشلونة يختلفون إلى الموانئ الزيانية خاصة هنين ووهران. واضطر بطرس الثالث إلى التفاوض مع عثمان بن يغمراسن⁽⁵⁾ (681-703هـ / 1283-1304م).

⁽¹⁾ كان ذلك يوم 5 جوان 1277م هو صالح للاستعمال طيلة استمرار السلم والمودة بين البلدين، ويستطيع صاحبه الذهاب والعودة بأية سلعة وإرسال أي شيء باسمه وباسم أخيه إلى المملكة (Dufourcq, op. cit., p. 313, note. 7).

⁽²⁾ Dufourcq, op. cit., p. 314, note. 3.

⁽³⁾ Ibid, p. 315.

⁽⁴⁾ قام القائد القطلاني بهذا حتى يضغط على الأمير عثمان بن يغمراسن ليدفع المبلغ المالي المتفق عليه أيام أبيه يغمراسن والملك جقمة الأول، مقابل استخدام السرية القطلانية في تلمسان (Ibid, p. 317.)

⁽⁵⁾ Ibid., p. 319؛ عن عثمان بن يغمراسن أنظر: حاجيات، أبو هو موسى الزياني، ص 15.

وقد سجل خروج خمس وأربعين رحلة من ميناء ميورقة، فيما بين 23 جانفي و18 مارس 1284م / 704هـ. اتجه ثلثها إلى إمارة بني عبد الواد⁽¹⁾، بالمغرب الأوسط، منها خمس رحلات إلى وهران⁽²⁾ ورحلتان إلى هنين⁽³⁾، ورحلتان إلى ميناء مزعفران⁽⁴⁾، ورحلتان إلى برشك (قوراية)⁽⁵⁾، ورحلة في اتجاه تنس⁽⁶⁾، وثلاث رحلات في اتجاه الجزائر، التي كانت في تلك الفترة محل صراع بين الحفصيين والزيانيين.⁽⁷⁾

ويستتج من هذه المعلومات أن الرحلات التجارية لم تكن تتوقف في فصل الشتاء، ولم ينقطع التجار عن موانئ بني زيان، رغم تعرضهم لخطر العواصف

(1) توجد هذه المعلومات بأرشيف بالما(أنظر: (Dufourcq, op. cit., p. 320, note. 1.).

(2) خرجت يوم 24 جانفي السفينة La Navis، يملكها الجنوي Benxo Caba، وعلى متنها ثلاثة بحارة ميورقيين، وسفينة Le Leny يملكها أحد أفراد الجالية الجنوية بميورقة يسمى Lorenzo scorba، وعلى متنها بحار مسلم من نفس الجزيرة، وفي 26 جانفي خرجت سفينة Le Leny لصاحبها Bernat Bertrand؛ وفي 25 فبراير خرجت السفيتان Les Lenys لكل من Simon Guillem Ricard و Conrey

(Dufourcq, cit., p. 320).

(3) تمت الرحلة الأولى يوم 25 جانفي بخروج سفينة Le Leny لصاحبها Pericon وتمت الثانية بخروج Père Ribot يوم 26 جانفي (Ibid., p. 230)

(4) الأولى يوم 28 جانفي، والثانية يوم 18 مارس، قام بهما Jaume Mercader (Ibid., p. 320)

(5) الأولى يوم 8 فبراير، قام بها Guillem Renart، والثانية يوم 25 فبراير قام بها Berenguer Liobet (Ibid., p. 230)

(6) قام بهذه الرحلة Guillem Godafre يوم 25 جانفي (Ibid., p. 230)

(7) أنظر: بشاري لطيفة، المرجع السابق، ص 38 فما بعدها.

والهجمات الصليبية، ولا يبرر مثل هذه الجرأة سوى الثروات الطائلة التي كانوا يجمعونها من تجارتهم تلك⁽¹⁾.

وأما تحالف غرناطة والمغرب الأقصى وقشتالة سنة 684هـ / 1285م، قرر الملك أدفونش الثالث الذي تولى الحكم سنة 682هـ / 1283م، بعد بطرس الثالث، أن يحدد معاهدة السلم والهدنة مع الزيانيين وأرسل ريموندي سان ليساريو Remondé San Licerio، حاكم بلنسية سنة 1284م إلى تلمسان للقيام بهذه المهمة، وفي ربيع سنة 686هـ / 1286م أرسل إليه عثمان بن يغمراسن وثيقة المعاهدة إلى برشلونة مع Père Garcia، وهي أقدم وثيقة معروفة إلى اليوم في موضوع العلاقات بين البلدين.

وحاول جقمعة الثاني عقد معاهدة ثانية مع عثمان بن يغمراسن، فبعث إليه رسالة يوم 10 سبتمبر 1296م / 696هـ، يطالبه فيها بإبرام معاهدة معه مثل التي عقدها مع أدفونش الثالث، حتى يحصل على جزء من مداخيل الجمارك في تلمسان، لكنه لم يتوصل إلى ذلك لأن الظروف قد تغيرت. فالعلاقات التجارية أخذت طريقها. وأصبح واضحاً أنها ستستمر حتى في غياب مثل هذه المعاهدات، كما لم يعد في نية بني زيان الاعتماد على الكتيبة الأراغونية في الدفاع عن حدودهم أو توسعها.

وهكذا فإن كل من الأمير يغمراسن بن زيان، وابنه أبي سعيد عثمان قد قاما ببذل مجهودات كبيرة لإقامة إمارة حكمت المغرب الأوسط. ما يزيد عن ثلاث قرون. وأرسى الاثنان سياستهما الداخلية بحكمة، فحاول كل منهما أن يوسع أراضي الدولة في المجال المتاح له كما اهتموا بوضع أسس السياسة الخارجية، فعقدا معاهدات مع القوى البحرية، وضبطا في بنودها حاجة سكان الإمارة، وحددا الواجبات. كما شجعا التجارة مع بلاد السودان وذلك لجلب الذهب الذي كانت

(1) Dufourcq; op. cit., p. 320.

تسعى إليه كل الدول في تلك الفترة وجعلها من مدينة تلمسان عاصمة يقصدها المسلمون والمسيحيون من مختلف البلاد الممتدة حول البحر الأبيض المتوسط.